مجلة العلوم الإنسانية ——عدد 50 ديسمبر 2018،المجلد ب ،ص. ص 65-75 ———

أفضلية النثر عند الكلاعي

سامي العتلي
كلية الآداب واللغة العربية
جامعة الإخوة منتوري
قسنطينة

ملخص:

يعالج هذا المقال أفضلية النثر عند (ابن عبد الغفور الكلاعي) من خلال كتابه (إحكام صنعة الكلام)، وقد عمد الكلاعي إلى اتباع طريقة في الاستدلال هي طريقة الاستدلال بالعكس، إذ أنه قام بتتبع مساوئ ومعايب الشعر ليخلص إلى أن النثر أفضل منه كونه لا يتوفر عليها، والشعر – في نظره – داع لسوء الأدب، ويحض على الكذب ومساوئ الأخلاق، والانتصار للباطل، إضافة إلى كونه يتوفر على الوزن الذي هو داع للترنم والغناء، والترنم يؤدي للفجور. أما النثر فبعيد عن هذا كله مما يدعو إلى المهجور، أو يتشبث بالمحجور.

الكلمات المفتاحية: النقد الأدبي- النثر- المفاضلة- ابن عبد الغفور الكلاعي.

Abstract:

This paper discusses the supremacy of prose over poetry ; in IbnAbdelghafour El-Kalaï, through his book “IhkamSanaat El-Kalam” (Mastering the Art of Rhetoric).
El-Kalaï followed a specific method of inference which is reverse inference. He searched out the vices and disadvantages of poetry to deduce that prose is better because it contains none of these vices and disadvantages. In his point of view, poetry is a call for bad manners, incites to lying and falsehood, such as making money, begging and encourages vanity. Moreover, poetry incites, due to its rhythmic verses, to singing and singing incites to immorality. As for prose, El-Kalaï thinks it is far from all these drawbacks and from calls for reviving the forsaken or clinging what is prohibited

Keywords: literarycriticism - prose - differentiation - IbnAbdelghafourEl-Kalaï

مقدّمة:

اهتم النقاد العرب القدامى بفن الشعر، وأولوه عناية كبيرة في مؤلفاتهم النقدية قلما نجد نظيرا لها في الثقافات الإنسانية، والحضارات العالمية الأخرى، وكان الشعر بحضوره الطاغي في الثقافة العربية القديمة يشكل بعدا حضاريا وقوميا انطلاقا من كونه ديوان العرب، ومستودع ذاكرتهم وتاريخهم، " وكانت سيادة الشعر على الوجدان الأدبي العربي شبه مطلقة في العصر الجاهلي ، ولم يشاركه تلك المكانة في قلوب العرب سوى بعض الخرافات والقصص البطولية التي كانوا يرددونها في أسمارهم

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة،الجزائر2018

ومنتدياتهم العامة، حتى صار الشعراء في الجاهلية بمنزلة الحكام والحكماء والأنبياء، يقولون فيرضى قولهم، ويحكمون فيمضى حكمهم، وصار ذلك فيهم سنة يقتدى بها، وأثارة يحتذى عليها"(1)، ولا نريد هنا أن نثبت قيمة ومكانة الشعر في تاريخ الثقافة العربية، وفي نفوس العرب بشكل عام، فهذا الأمر ليس ما نقصده، لأن التاريخ يشهد لذلك، وكم المؤلفات والمصنفات التي دارت حول الشعر تغني عن الجدال في هذا الأمر، وإنما أشرنا لهذا الأمر لنجعله مدخلا لقضية أثارت اهتمام النقاد القدامى في المشرق والمغرب، هي قضية الشعر والنثر، اللذين ينتميان إلى فن واحد هو الأدب، ويشكل كل واحد منهما قسما من أقسامه، ولكن رغم أنهما يخرجان من مشكاة واحدة، إلا أن النقاد وجدوا تباينا واختلافا بينهما، على مستوى الشكل والمضمون، مما دعاهم إلى طرح تساؤلات كلها تدور حول الموازنة والمفاضلة والترجيح.

لهذا كان لزاما علينا قبل الدخول في موضوع المقال أن نشير إلى قضية المفاضلة بين الشعر والنثر، هذه القضية التي أخذت حيزا كبيرا واحتلت موقعا متميزا في دائرة النقد العربي القديم، وهذه القضية في الحقيقة ليست حكرا على الثقافة العربية القديمة، بل نجدها حتى في الثقافات الأخرى، وقد " شغل الجماليون منذ زمن بالتفريق بين الشعر والنثر على أساس أن الشعر ينماز عن سواه بما فيه من إيقاع وقافية وأوزان"(2)، وهذا المعيار كما هو واضح معيار ظاهري على مستوى الشكل الخارجي للنص الشعري، وفي اعتقادنا ليس كافيا للتفريق والمفاضلة بين الشعر والنثر. فكان الموضوع مثار اهتمام من جهتنا لأنه يحتاج إلى مزيد توضيح وبيان.

وقد وقع اختيارنا على عَلم من أعلام النقد الأندلسي، هو (ابن عبد الغفور الكَلاعي)المتوفى سنة 587 للهجرة، وهذا لسببين اثنين هما:

أولا: كونه من المتأخرين لأنه من نقاد القرن السادس الهجري، وهذا ما أتاح له الاطلاع على آراء سابقيه من النقاد المشارقة والمغاربة والأندلسيين.

ثانيا: كونه يمثل بمؤلفاته وخاصة كتابه " إحكام صنعة الكلام " جهدا نقديا متميزا، وطروحات أدبية ونقدية وبلاغية جديدة، لم يسبق إليها من قبل.

ويعد الكلاعي من النقاد الذين فضلوا النثر على النظم، ولكن ما يهمنا هنا هو التركيز على الحجج والأدلة والبراهين التي قدمها في محاولة منه لتأكيد موقفه النقدي.

ويجدر بنا قبل الحديث عن موقف الكلاعي الإشارة فقط إلى أن معظم النقاد العرب القدامى في المشرق والمغرب قبل عصر الكلاعي وبعده قد أدلوا بدلوهم في هذه القضية، وأشاروا إليها في مؤلفاتهم، وكان كل فريق يقدم الحجج والأدلة التي يراها مناسبة لإثبات وجهة نظره. ويمكن تلخيص مذاهب النقاد في هذه القضية في ثلاثة اتجاهات، أما الاتجاه الأول فقد ذهب أصحابه لتفضيل الشعر على النثر، مثل: (ابن رشيق القيرواني) في كتابه (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده)، أما الاتجاه الثاني فقد ذهب أصحابه لتفضيل النثر على النظم، مثل: (ضياء الدين ابن الأثير) في كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)، والقلقشندي في كتابه (صبح الأعشى في ضناعةالإنشا)، أما الاتجاه الثالث فقد ذهب أصحابه للتوفيق بين المذهبين أو الاتجاهين، ولم يرجحوا أحدهما على الآخر، بل ذهبوا إلى القول أن كلا من الشعر والنثر له خصوصيته الأدبية التي يتميز بها، وأن البلاغة وجمالية التعبير والأداء غير محصورة في أحدهما دون الآخر، بل الأمر يرجع بالدرجة الأولى للكاتب أو الشاعر في طريقة استعماله للغة وإيصاله للمعنى. مثل: أبي هلال العسكري في كتابه: (الصناعتين: الكتابة والشعر).

ذهب الكلاعي في كتابه " إحكام صنعة الكلام " إلى تفضيل النثر على النظم، وهذا من خلال تطرقه لقضية المفاضلة بين النظم والنثر قبل أن يبدأ الحديث عن الأجناس النثرية وخصائصها الفنية، وقد سمى

الفصل المخصص لهذه القضية : (في الترجيح بين المنظوم والمنثور)، وقبل أن نقف عند رأي الكلاعي من الشعر والنثر وتفضيله للنثر، يجدر بنا أن نقف عند المصطلحات المكونة لهذا الفصل حتى نعرف مقصوده أكثر وماذا أراد قوله في هذا الفصل.

وأول مصطلح يصادفنا في عنوان الفصل هو(الترجيح) الذي هو مصطلح من المصطلحات الفقهية، ومعناه عبارة عن " تقوية أحد الطرفين على الآخر، فيعلم الأقوى فيعمل به ويطرح الآخر"(3)؛ ومعنى هذا أن الترجيح فيه تقوية أحد الدليلين على الآخر حتى يصبح هو القوي والبائن والظاهر، حتى يعتقد بعد ذلك صحته. وهذا ما فعله تماما الكلاعي في هذا الفصل، إذ قدم مجموعة من الأدلة التي تثبت وجهة نظرة وتقويها وتدعمها، وهذه الأدلة التي قدمها الكلاعي جاءت متنوعة عقلية ودينية وأخلاقية وواقعية، وهذا ما سنحاول الوقوف عنده في هذا المبحث.

أما مصطلحا " المنظوم والمنثور " فيقصد بهما غالبا الشعر والكتابة الإنشائية، وهذا في الحقيقة راجع لاعتبارات فنية وأدبية محضة؛ إذ " أن جميع أشكال النثر الموروثة عن العصر الجاهلي من خطابة ومحاورات وقصص وأمثال وما إليها، ورثتها الكتابة الإنشائية في العصر العباسي واستحوذت على محاسنها، فكانت المقصودة بالنثر عندما يستعمله القدماء في المفاضلة بينه وبين النظم وفي المقارنة بينهما. وكان الشعر من جهته أبرز أنواع النظم وأشهرها وأغزرها إنتاجا وأكثرها سيرورة وتداولا، فكان المقصود بمصطلح النظم عند المقارنة والمناظرة بينه وبين النثر"(4).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نود الإشارة إلى شيء مهم في قضية المنهج الذي اتبعه الكلاعي. فلقد نهج الكلاعي في قضية تفضيلة النثر على الشعر على منهج فريد من نوعه، يقوم على الاستدلال بالعكس، وهي طريقة غير مباشرة في الاستدلال تقوم أساسا على نفي الصفة عن شيء ما، والهدف هو إثبات هذه الصفة لنقيض هذا الشيء. وهذا ما قام به الكلاعي بالضبط في تفضيله للنثر على الشعر.

قام الكلاعي كما قلنا سابقا بالحديث عن الشعر، وبعد أن أورد بعضا من فضائله وخصائصه الفنية التي يمتاز بها، والتي لم يتوسع فيها ، ولم يتحدث عنها بشكل مسهب ومفصل، ينتقل مباشرة إلى الحديث عن مثالبه أو معايبه، وكان كلامه في بعض المرات موجها للشعر، وفي بعض الأحيان موجها للشعراء، والهدف من إثبات هذه المثالب للشعر والشاعر هو نفيها مقابل ذلك عن النثر والناثر أو الكتابة والكاتب. وهي طريقة في الاستدلال كما قلنا تقوم على نفي صفات الشيء لإثباتها لنقيضه.

هذا ما أردنا الإشارة إليه قبل الحديث عن حيثيات الموقف النقدي للكلاعي في قضية تفضيله للنثر على الشعر، وهذا كله رغبة منا في البيان والإيضاح، إضافة إلى كونها خطوة مفيدة تجعلنا نحكم على الكلاعي الحكم الصحيح البعيد عن الزيغ الفكري والميل والهوى.

يبدأ الكلاعي حديثه من خلال الرجوع إلى الوراء؛ أي الأزمنة السابقة لعصره، ويقول أن هذه القضية شغلت بال النقاد القدامى، وأن الاختلاف موجود منذ القدم، وأن القضية ليست جديدة على الساحة النقدية في عصره، وأن هناك من فضل النثر، وهناك من فضل النظم، وكل فريق له حججه وأدلته، يقول في هذا الصدد: " الترجيح بين المنثور والمنظوم يمٌّ قد خاض فيه الخائضون، وميدان قد ركض فيه الراكضون"(5)، وقد شبه الكلاعي هذا الميدان باليم لاتساعه واتساع الطرق والمذاهب والآراء فيه، فبابه واسع، وليس سهلا الإدلاء بموقف فيه، لأنه كالبحر المتلاطم الأمواج الذي لا يقدر على مجابهته إلا من امتلك القدرة على ذلك، وامتلك العدة والأدوات اللازمة لذلك.

وهنا نرى الكلاعي قبل أن يرجح النثر، ويبين لنا محاسنه، ويفضله على الشعر، نراه يبدأ حديثه بإبراز بعض محاسن الشعر، وهذا في الحقيقة منهج سليم، فمن الإنصاف والعدالة أن تذكر محاسن الشيء قبل مساوئه ومثالبه، وهذا من باب الأمانة العلمية والموضوعية في الأحكام، فالتقييم حتى يكون صحيحا

ومقبولا علميا يجب أن يكون موضوعيا مبنيا على أسس وقواعد سليمة. يقول: " ورأيي أن القريض قد تزين من الوزن والقافية بحلة سابغة ضافية، صار بها أبدع مطالع، وأصنع مقاطع ، وأبهر مياسم، وأنور مباسم. وأبرد أصلا، وأشرد مثلا، وأهز لعطف الكريم،و أقل لغرب اللئيم"(6)

يرى الكلاعي أن هناك مزية في الشعر زادته بهاء وحسنا، وهما الوزن والقافية اللذان جعلا الشعر في أبهى حلة، وإن كنا سنرى الكلاعي في الأخير يعيب الشعر بسبب الوزن لأنه داع للترنم في نظره. المهم أن الكلاعي أكد في البداية على هذين العنصرين المهمين في الشعر اللذين من خلالهما لبس الشعر لباسا واسعا سابغا ضافيا.

فللوزن والقافية بعد جمالي يضفي على النص بهاء ورونقا من خلال الأثر الذي يتركه كل منهما في أذن المتلقي، على اعتبار أن القافية ما هي إلا " عدة أصوات تتكون في أواخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة، وتكررها هذا يكون جزءا هاما من الموسيقى الشعرية. فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها، ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة، وبعد عددمعين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى بالوزن"(7)

والحقيقة أن الكلاعي ليس هو فقط من أشار إلى هذا الجانب الإيقاعي الجمالي في الشعر، وإنما قد سبقه إلى هذه النقطة العديد من النقاد قبل القرن السادس الهجري، والذين فضلوا النظم على النثر واعتمدوا على الوزن والقافية حجة في تعزيز موقفهم، وهما أمران يختصان بالشعر دون النثر، ولا يشاركه فيهما أي من الفنون الاخرى، ولقد عرف الشعر العربي منذ القديم ومنذ بدايات نشأته هذين العنصرين المهمين، ولم يتخل عنهما الشاعر العربي منذ اللحظة الأولى، إدراكا منه – ربما – لوقعهما الجميل في أذن المتلقي. كما أن النقاد العرب على مر العصور نبهوا إلى الدور الذي يلعبه الوزن والقافية في تشكيل القصيدة العمودية، ويكفي أن نتصفح أي كتاب لنجد فيه إشارة للوزن والقافية، وخوفا من الإطالة تجنبنا إيراد النصوص، ولكننا نقول أن تعريف الشعر بأنه كل كلام موزون مقفى وارد عند النقاد القدامى.لهذا نجد الوزن والقافية في الشعر عند الكلاعي " مصدر زينته وجماله، ومنبع تأثيره وسيرورته، فصار بانتظامه وتناسقه ذا مطالع ومقاطع متناغمة، تروق الأسماع والأبصار، وتستثير المشاعر والقلوب، وتبعث المستمعين على الاهتزاز والاستجابة لرغبات الشعراء، وتتميز منه أمثال سائرة، تختارها العقول، وتتناقلها الألسنة على مر العصور، وهو صناعة صعبة لا يطيقها إلا النبهاء، لأنها تضيق على صاحبها منافذ الاختيار، ولذلك كله أشاد به الرسول عليه السلام، وقاله الصحابة واستمدوا منه"(8)

نلاحظ من خلال كلام الكلاعي السابق مكانة الشعر وقيمته الأدبية والفنية، وأثره النفسي والاجتماعي، وهو يتميز بجملة من الخصائص الشكلية والمعنوية يمكن أن نوجزها فيما يلي:

- يشكل الوزن والقافية مصدر جمال الشعر، وهما يتركان أثرا إيجابيا بالغا في نفسية المتلقي، لأنهما يجعلان الشعر كلاما متناسقا متناغما، وهذا مما تطرب له أذن الإنسان، وترتاح لسماعه النفوس، إذ أن الإنسان مفطور على سماع الأصوات الجميلة والمنسجمة.
- يتميز الشعر بكونهمصدرا غنيا بتجارب الشعراء وما مر بهم من أحداث، وفيه الكثير من الأمثال السائرة بين الشعوب والأمم، والأبيات الشاردة، التي تلخص لنا المعاني الكثيرة بأقل ما يمكن من الألفاظ.
- وصف الكلاعي الشعر بالصناعة في إشارة منه إلى ما تحمله هذه اللفظة من دلالات لها علاقة بالإتقان والتفنن والإبداع، فالشاعر صانع، والشعر صناعة فيها الكثير من المكابدة والجهدوالتعب وتدقيق النظر، إضافة إلى الموهبة والملكة، وهذا كله ليس متاحا لأي إنسان أن يخوض فيه، إلا إذا كان جامعا بين الأمرين، لهذا قيل: " خير الشعر الحولي المحكك".

- دعا الرسول صلى الله عليه وسلم لقول الشعر وأشاد به، خاصة منه ما كان في خدمة الدين الإسلامي، وفيه حث على مكارم الأخلاق، ودعوة للفضائل، وقد ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام أنهم كانوا يحفظون الشعر ويستشهدون به في كلامهم.

نلاحظ أن الكلاعي بدأ كلامه بالإشارة إلى خصائص وميزات الشعر، التي تشكل في مجموعها بعدا فنيا وجماليا قد لا نجده في باقي الفنون الأخرى؛ فالشعر في نظر الكلاعي يتوفر على جماليات أسلوبية ولغوية وبلاغية تثير انتباه القارئ، وتجبره على التأمل وإمعان النظر.

وبعد أن يفرغ الكلاعي من الإشارة إلى مزايا وفضائل الشعر، ينتقل إلى الحديث عن معايبه ومساوئه، من خلال استعماله لأداة الإستدراك " لكن "، فهو يستدرك ما قاله عن مزايا الشعر بالحديث عن معايبه. وسوف نحاول هنا تفكيك كلام الكلاعي والتعرف أكثر على الحجج التي قدمها في تفضيله للنثر على الشعر، ووضع ذلك كله في سياقه التاريخي العام.

يرى الكلاعي أن النثر "أسلم جانبا، وأكرم حاملا وطالبا"(9)،وهو بهذا يشير إلى الجانب الأخلاقي في الأدب عموما، فالنثر من هذه الجهة أضمن، وأبعد عن فساد المعتقد وسوء الأخلاق، وقد استدل الكلاعيبقول " رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا"، ولم يقل كتابة ولا خطابة، لأن الشعر داع لسوء الأدب، وفساد المنقلب. لأنه – لضيقه وصعوبة طريقه – يحمل الشاعر على الغلو في الدين، حتى يؤول إلى فساد اليقين. ويحمله على الكذب، والكذب ليس من شيم المؤمنين"(10)

نرى في هذا النص أن الكلاعي يستدل بحديث للرسول فيه تنفير من الشعر، أو لنقل فيه على الأقل تنفير من الاهتمام الزائد بالشعر يصبح فيها الشاعر مشغولا بالشعر عن ذكر الله وعن الدين بشكل عام، ويرتب الكلاعي مقدمات ليصل من خلالها إلى مجموعة من النتائج، فالرسول قال شعرا ولم يقل خطابة ولا كتابة لأن الشعر في نظره طريقه صعب ووعر وضيق وربما هو يشير هنا إلى ما يمتاز به الشعر من وزن وقافية، فالشعر بهذين العنصرين كلام مقيد، وعلى الشاعر أن يلتزم بهما في جميع أبياته، إضافة إلى أن الشعر من أكثر ضروب الكلام احتواء للصور والأخيلة، لأنه يقوم غالبا على مخاطبة العاطفة وتصوير المشاعر والأحاسيس، عكس النثر الذي يقوم عادة على مخاطبة العقل، ولهذا في نظر الكلاعي يكثر الكذب في الشعر، الذي هو ليس من شيم المؤمنين.

ويبدو الكلاعي من خلال موقفه هذا من الشعر مخالفا لطائفة من النقاد القدامى، فإذا كان الكلاعي يرى في الكذب عيبا في الشعر، فإن هناك من يرى عكس ذلك تماما، ويكفي هنا أن نشير إلى بعض الآراء فقط لنرى من خلالها مدى اتساع المدونة النقدية القديمة، وأن الاختلاف الموجود بينهم ما هو إلا إثراء للأدب والنقد.

فأبو هلال العسكري مثلا (395 /1005) يقول: " ولا يقع الشعر في شيء من هذه الاشياء موقعا، ولكن له مواضع لا ينجح فيها غيره من الخطب والرسائل وغيرها، وإن كان أكثره قد بني على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة، والنعوت الخارجة عن العادات، والألفاظ الكاذبة من قذف المحصنات، وشهادة الزور وقول البهتان، لا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر وأفحله"(11)، فأبو هلال العسكري يقف موقفا مناقضا تماما لموقف الكلاعي، إذ يرى أن الكذب لازم في الشعر وهو من الأشياء التي تجمله وتحسنه.

ويقول بعد ذلك: " وليس يراد منه إلا حسن اللفظ وجودة المعنى، هذا هو الذي سوغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه"(12)

ويقول: " وقيل لبعض الفلاسفة: فلان يكذب في شعره، فقال: يراد من الشاعر حسن الكلام، والصدق يراد من الأنبياء"(13)

أما ابن رشيق القيرواني (456 / 1064) فلا يختلف موقفه من هذه القضية عن موقف أبي هلال العسكري، فهو كذلك يرى أن الشعر يقوم على الكذب، وإن كان الكذب الذي يقصده ليس تزويرا للواقع وتزييفا للتاريخ وقلبا للحقائق، وإنما هو الكذب الفني بتعبير النقاد، يقول ابن رشيق القيرواني " ومن فضائله " يقصد الشعر"، أن الكذب- الذي اجتمع الناس على قبحه- حسن فيه، وحسبك ما حسن الكذب، واغتفر له قبحه"(14)

أوردنا هذين الرأيين فقط لنبين أن قضية الصدق والكذب في الشعر قد أخذت حيزا كبيرا من التفكير النقدي العربي القديم، واختلف النقاد في المشرق والمغرب والأندلس في نظرهم لها، واكتفينا بهذين الموقفين لناقدين أحدهما يمثل بيئة المشرق والآخر يمثل بيئة المغرب.

ويمضي الكلاعي في حشد الشواهد والروايات التي تؤيد وجهة نظره في ترجيح المنثور على المنظوم خاصة من جهة أن الشعر يدعو إلى الكذب يقول: " ومن كلام بعض البلغاء، إياك والشاعر فإنه يطلب على الكذب مثوبة. ويقرع جليسه في أدنى زلة"(15)، وواضح من هذا القول مدى ازدراء الكلاعي لطائفة الشعراء الذين لا يتورعون عن الكذب وتتبع العورات.

واستدل الكلاعي كذلك بقول الأصمعي: " الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف. هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الاسلام سقط شعره"(16)،فالشعر فينظر الكلاعي مرتبط أشد الارتباط بما هو قبيح وسيء من الأفعال والأخلاق. إذ يمكننا أن نستخلص من القولين السابقين أن الشعراء عادة ما يلجأون إلى توظيف ما ينافي الأخلاق ويعارض القيم النبيلة في أشعارهم، كالكذب والغلو والمغالاة في المدح، وتتبع الناس في زلاتهم وفضحهم في الهجاء. وهنا يجب علينا أن نقف وقفة متأنية أمام هذه الأقوال خاصة قول الأصمعي الذي رواه الكثير من النقاد بروايات أخرى مشابهة لهذه الرواية في مضمونها العام، من أن الشعر إذا اقترن بالخير والفضيلة والأخلاق ضعف ولان وفقد قيمته الجمالية. وهذا القول في الحقيقة إن كان الكلاعي قد اعتمد عليه للدفاع عن النثر مقابل الحط من قيمة الشعر، فإن هناك من النقاد قديما وحديثا من اعتمد على المقولة ذاتها لطرح قضية أخرى هي قضية الشعر والأخلاق، واستخلص الكثير منهم من كلام الأصمعي السابق، أن الأدب بشكل عام والشعر بشكل خاص تنحصر وظيفته في استمالة القارئ والتأثير في وجدانه، أي أن الوظيفة هنا جمالية وفنية بحتة؛ بمعنى أن الأدب لا ينحصر دوره في إيصال المعنى فقط، وإنما في إيصال المعنى بطريقة ممتعة ومسلية، وبأسلوب لافت وجاذب للانتباه. وربط الأدب والشعر على وجه الخصوص بالدين يجعله ضعيفا لينا بتعبير الأصمعي، ويفقد بسبب هذا الربط كل ما له علاقة بالفن والجمال الأدبيين.

إذن يمكن القول أن الكلاعي قد أراد بقول الأصمعي السابق أن الشعر والشعراء مذهبهم قائم على الفن من أجل الفن لا غير، فلا يمكن للشعر في نظر الكلاعي أن يكون وسيلة للخير والمتعة والجمال في الوقت ذاته، فعلى الشاعر هنا أن يسلك أحد الطريقين إما طريق الخير ويكون مضحيا إذ ذاك بالأداء الفني والإبداع الأدبي، أو أن يسلك طريق الإبداع والأداء الفني الجيد مضحيا بالمثل والقيم العليا، وهذا في الحقيقة هو الغالب في الشعر وليس كله، وربما هذا ما قصده الأصمعي.

وتوجد رواية أخرى أوردها الكلاعي في معرض حديثه عن معايب الشعر جاء فيها: " وكتب عبد الله بن أبي ربيعة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه: إني قد اشتريت لك غلاما شاعرا، فكتب إليه عثمان رضي الله عنه: لا حاجة لي به. اردده، فإنما حظ أهل العبد الشاعر منه إذا شبع أن ينسب بنسائهم، وإن جاع أن يهجوهم"(17).

وهذه الرواية المشهورة في تاريخ الأدب العربي القديم ما هي إلا دليل على تفطن العرب قديما لبعض صفات الشعراء وشيمهم التي يمتازون بها، من انعدام الرزانة وغياب العقل وقول أي شيء في كل شيء، خاصة وأن الشعر يغلب عليه الوجدان والعاطفة، فينجر الشاعر حينئذ إلى الغلو والمبالغة والخروج عن حدود المنطق والعقل، خاصة في بعض الأغراض الشعرية التي يكون فيها الشاعر في حالة إعجاب أو انبهار كالمدح والغزل والرثاء، وحتى نفهم هذه الرواية على حقيقتها يجب علينا أن نربطها بسياقها الحضاري الذي وردت فيه، إذ أن الشاعر الغلام الذي أراد عبد الله بن أبي ربيعة أن يهبه لعثمان بن عفان هو الشاعر المخضرم " سَحيم عبد بني الحَسْحَاس" الذي كان شاعرا حلو الشعر، وأكثر شعره في الغزل وغزله فاحش، لهذا السبب ربما لم يقبله عثمان بن عفان، وهو الصحابي الجليل الذي يأبى ويرفض مثل هذا النوع من الشعر الذي فيه فحش وبذاءة.

من الأدلة والحجج كذلك التي أوردها الكلاعي في ترجيحه للنثر على الشعر، أن الشعر لا يجيده إلا متكسب به، وساق الكلاعي طائفة من النصوص في هذا المعنى سنوردها، ونحاول تقديم صورة عما أراد هو قوله.

وكل هذه الأقوال تحمل معنى التكسب في الشعر وهي:

اللُّهى تفتق اللَّهَى: أي أن العطاء يفتق لسان الإنسان، أي يجعله منطلقا، واللهى الأولى بالضم هي العطايا، أما اللهى الثانية بالفتح فهي جمع لهاة وهي اللسان.

بيع الشعر بالسِّعر: أي المال والنقود مقابل الكلام الجيد والجميل. فالشاعر هنا يبيع كلامه للآخرين، ولا يهمه أن كان الكلام حقا أم باطلا، لأن المال هنا هو المتحكم في قريحة الشاعر.

لسان الشاعر أرض لا تخرج الزهر حتى ينسكب المطر: أي أن الشاعر لا يقول الشعر حتى يعطى المال، وتجود الأيادي عليه بالعطايا والهبات، مثل الأرض التي لا تتزين وتخرج زخرفها إلا إذا نزل المطر الوفير.

قول أبي سعيد المخزومي:

الكلب والشاعر في حالة يا ليت أنّي لم أكن شاعرا
أما تراه باسطا كفه يستطعم الوارد والصادرا

ومعنى أبي سعيد المخزومي، فيه نوع من القسوة على الشعراء، إذ ساواهم بالكلاب في استجدائهم وطلبهم المعونة من كل من هب ودب.

وختم الكلاعي حديثه عن التكسب في الشعر في سبيل تأكيد أفضلية النثر دائما بكلام لأبي العلاء المعري في " خطبة الفصيح "، وإن كان كلام المعري فيه نوع من التخصيص، بمعنى أنه لا يذم الشعراء جميعا، وإنما طائفة منهم فقط، ممن جعلوا شعرهم وسيلة لكسب المال، فالشعر إذا جعل مكسبا لم يترك للشاعر حسبا.(18)

هذه هي الأقوال التي استشهد بها الكلاعي في حديثه عن قضية التكسب في الشعر، وأن ذلك مما يحط من قيمة الشعر والشاعر معا، والكلاعي على حق لأن التكسب والاستجداء فعلا كان ظاهرة منتشرة في الشعر العربي القديم بدء بالعصر الجاهلي، الذي كان الشعراء فيه يفدون على الملوك والأمراء يمدحونهم طمعا في المال والجوائز والهبات. وقلما تجد شاعرا لم يتكسب بشعره.ويمكن القول إجمالا أن التكسب في الشعر مرفوض من جانبين " أحدهما بشاعة الكذب وقبح أثره في نفس الكاذب ونفس المكذوب عليه... الثاني: أن ما يفيده من التكسب في الشعر إنما هو مال حرام قد استحل ظلما، وربما كان صاحبه مضطرا إليه وربما كان رزق صغار أو امرأة عاجزة، ولا شك في أن أصحابه لم يسلموه إلا كارهين"(19)

ننتقل إلى سبب آخر من الأسباب التي جعلت الكلاعي يفضل النثر على الشعر، وهو أن"الشعر يحمل الشاعر على خطاب الممدوح بالكاف، ودعائه باسمه، ونسبه إلى أمه. وهذا كله من سوء الأدب، أو داع إليه"(20). ولو اردنا أن نفصل فيما قاله الكلاعي تفصيلا، لوجدنا أن الشعر العربي القديم فيه مما ذكره الكلاعي من مساوئ الشعر الشيء الكثير، وقد تفطن النقاد القدامى لهذا الأمر، وعقبوا على الأخطاء التي كان يقع فيها الشعراء، ومن هذه الأخطاء خطاب الشاعر ممدوحه بالكاف يقول ابن الأثير في كتابه المثل السائر:" واعلم أن للمدح ألفاظا تخصه وللذم ألفاظا تخصه، وقد تعمق قوم في ذلك حتى قالوا من الأدب ألا تخاطب الملوك ومن يقاربهم بكاف الخطاب، وهذا غلط بارد، فإن الله الذي هو ملك الملوك قد خوطب بالكاف في أول كتابه العزيز فقيل " إياك نعبد وإياك نستعين"(21)

والشواهد على ذلك كثيرة في الشعر العربي القديم، وليس المقام مقام حديث عنها هنا، خوفا من الإطالة والخروج عن سياق الحديث، المهم أن ابن الأثير يرى أن " جل خطاب الشعراء الممدوحين إنما هو بالكاف"(22)

أما الدعاء باسم الممدوح، فمما لا شك فيه أن هذا كذلك يعد من معايب الشعر ، ونحن مع الكلاعي في طرحه هذا، لأن هذا الامر قد يصل بالشاعر إلى درجة كبيرة من فساد الدين والمعتقد الصحيح، والشاعر في غمرة المدح خاصة إذا كان الممدوح ملكا أو أميرا لا يحس كيف تخرج الألفاظ والمعاني من ذهنه فيقع في المحاذير والشركيات دون أن يتفطن لذلك، ويمكن أن نضرب مثالا على ذلك بما قاله المتنبي في مدح "محمد بن زريق الطرسوسي:

يا من نلوذ من الزمان بظله أبدا ونطرد باسمه إبليسا

المعنى: يا من نلجأ إلى ظله إذا جار علينا الزمان، وإذا تعرض لنا إبليس طردناه باسمه؛ لأن اسمه محمد، وبه يطرد إبليس. قيل: إنه أراد أنه في هيئة بمثابة أن يطرد به إبليس، مع كثرة ضرره بالناس، وقيل: أراد بإبليس، كل من تتأذى به الأنفس فهو إبليس**."**(23)

ولو تأملنا هذا البيت لوجدنا فيه شركا ظاهرا؛ فالله سبحانه وتعالى هو من يطرد باسمه إبليس، وليس الإنسان مهما كانت درجته ومكانته، والاستعاذة لا تكون إلا بالله عزوجل دون غيره وسواه من البشر، وحتى الأنبياء والصالحين لا تجوز الاستعاذة بهم، يقول الله تعالى في محكم كتابه العزيز: ((وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم))(24)

والأمثلة والشواهد كثيرة جدا، وقد أردنا بهذا المثال فقط للتدليل والوقوف مع موقف الكلاعي ونؤكد على أن الكلاعي لم ينطلق من فراغ في كلامه السابق، وإنما بناء على شواهد وحجج وأدلة موجودة في الواقع الشعري العربي.

أما قوله "ونسبه إلى أمه"؛ فهذا كذلك مما يكثر في الشعر، ومما اشتهر به الشعر العربي القديم ومن فحول الشعراء، ورغم أن النسب إلى غير الأب ليس من عادة العرب قديما، إلا أن الشعراء نجدهم في أحيان كثيرة يخرجون عن هذا التقليد، حتى مع الخلفاء " ومما أخذ على (أبي نواس) في قصيدته الميمية الموصوفة التي مدح بها (الأمين محمد بن الرشيد) وهي قوله:

أصْبحتَ يا ابن زبيدة ابنة جعفر أملا لعَقد حِباله استحكامً

وكذلك قوله في موضع آخر:

وليس كجدتيه أم موسى إذا نسبت ولا كالخيزران

وهذا لغو من الحديث لا فائدة فيه، فإن شرف الأنساب إنما هو إلى الرجال لا إلى النساء"(25)

فهذه الأمور التي مرت بنا آنفا من خطاب الممدوح بالكاف، ودعائه باسمه، ونسبه إلى أمه من الأمور التي يقع فيها الشعراء عادة بغض النظر عن طبقة الشاعر، ومكانة ومرتبة من قيل فيه الشعر، وقد عدها الكلاعي من سوء الأدب، أو مما يدعو إلى سوء الأدب.

ومن الأشياء التي ذكرها الكلاعي كذلك عن النص الشعري، وتحط من قيمته فنيا وأخلاقيا، وتجعل مقابل ذلك النثر أفضل منه، شيء اشتهر به الشعر على مر الزمن وهو الوزن، والغريب في الأمر أن الكلاعي في بداية حديثه عن الشعر ومحاسنه ذكر أنه قد تزين من الوزن والقافية بحلة سابغة ضافية، ولكنه في الأخير رجع عن رأيه وعد الوزن من معايب الشعر، وقد رتب على توفر الوزن في الشعر نتائج خطيرة تؤدي للوقوع في الزنا وربما اكثر من ذلك إلى الموت يقول الكلاعي: " ومن معايب الشعر ما فيه من الوزن، لأن الوزن داع للترنم. والترنم من باب الغناء، وقد قال بعضهم: الغناء رقية الزنا. وقال الكندي: الغناء برسام حاد، لأن المرء يسمع فيطرب، ويطرب فيسمح، ويسمح فيعطي، ويعطي فيفتقر، ويفتقر فيغتم، ويغتم فيمرض، ويمرض فيموت"(26)

يمكن القول أن الكلاعي في جعله الوزن داع للزنا فيه نوع من المبالغة، لأن استشهاده بأن الغناء رقية الزنا أي طريقه وسبيله والداعي إليه، لا ينسجم مع ما أراد الوصول إليه، فالغناء يختلف عن الترنم ولا مجال للمقارنة بينهما،جاء في لسان العرب في مادة (رنم)، " الرنيم والترنيم: تطريب الصوت و في الحديث: ما أذن الله لشيء أذنه لنبي حسن الترنم بالقرآن، وفي رواية: حسن الصوت يترنم بالقرآن، الترنم: التطريب والتغني وتحسين الصوت بالتلاوة ويطلق على الحيوان والجماد، ورنم الحمام والمكاء والجندب، قال ذو الرمة:

كأن رِجليه رِجلا مِقطَفَ عِجل إذا تجاوب من بُرديه تَرنيمُ

والحمامة تترنم، وللمكاء في صوته ترنيم"(27)

هذا ما جاء في (لسان العرب) في معنى الترنم، وواضح أن الترنم غير الغناء، فالغناء يكون عادة مصحوبا بالموسيقى، وحتى إن لم يكن مصحوبا بالموسيقى فهو يختلف عن الترنم، إذ أن الغناء عادة يكون في الأشعار المتضمنة للغزل ويكون فيها تعبير عن مشاعر الحب والغرام والعشق والوجد ولوعة الفراق والأسى على بعد الحبيب إلى غير ذلك من المشاعر والأحاسيس التي تكون بين المحبين والعاشقين.

أما قول الكندي أن الغناء برسام حاد، ففيه تشبيه للغناء بالمرض والعلة، وهذا القول جزء من كلام أوصى به ابنه أبا العباس،وهذا القول كذلك ينطبق على ما قلناه سابقا من أن الغناء يختلف عن سماع الشعر.

هذه هي الحجج التي قدمها الكلاعي في قضية ترجيح المنثور على المنظوم وهي حجج كما رأينا عبارة عن أقوال منسوبة لطائفة متنوعة ومختلفة؛ فنجد الصحابي، واللغوي، والكاتب البليغ، والفيلسوف، وحتى الشاعر، وربما الكلاعي قد تعمد هذا الأمر حتى لا يترك حجة للمخالف.

بعد ذلك يرى الكلاعي أن هذه المعايب الموجودة في الشعر لا توجد في النثر، فإذا كان الشعر ينحاز عادة لما هو مرذول ولما هو مشين ومنحط، فإن " الكتابة بعيدة عن هذا كله، سليمة مما يدعو إلى المهجور، أو يتشبث بالمحجور"(28)، ويقدم لنا حجة أخرى وهي أن العلماء كانوا يكرهون افتتاح الكلام بذكر اسم الله عزوجل تحرزا من أن يكون الكلام متضمنا لمعاني غير حسنة، لكننا نجدهم إذا ما نظموا قصيدة يفتتحونها بذكر " الله أكبر"، وإذا ما كتبوا رسالة أو خطبة لم يفعلوا ذلك وكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم. وهذا دليل آخر يقدمه الكلاعي في تفضيلة الكتابة على الشعر.

ويختمالكلاعي حديثه بقوله " أن الكتابة والشعر شيئان متنافران، لتنافر طبائع أهلهما"(29)، ويمكننا القول هنا أنه على الرغم من اختلاف الشعر عن النثر في أشياء كثيرة، كاعتماد الشعر على لغة الخيال، واعتماد النثر على لغة العقل، ووجود الوزن والقافية في الشعر دون النثر، إلا أن هذا الاختلاف لا يعني التنافر، وعدم الإلتقاء تماما، والدليل على ذلك أننا يمكن أن نجد عنصر الخيال ولغة الشعر موجودة في النثر، كما يمكن أن نجد لغة العقل وأسلوب السرد والحوار في الشعر، وهذا ربما ما يجعلنا نخالف الكلاعي فيما ذهب إليه من وجود تنافر بين الشعر والنثر.

نخلص إلى نتيجة مفادها أن الكلاعي من النقاد العرب القدامى الذين فضلوا النثر على الشعر، ورأى أن النثر بعيد عن الشعر في شكله ومضمونه، وأن الكتاب يختلفون عن الشعراء في طبائعهم وأوصافهم. ولهذا يمكننا القول أن أفضلية النثر عند الكلاعي تنطلق أساسا من قاعدة أخلاقية ودينية، وهذا كله رأيناه من نوعية الشواهد والأقوال التي ساقها الكلاعي في سبيل الدفاع عن موقفه.

ولا يمكننا الجزم بما ذهب إليه الكلاعي من تفضيله للنثر على الشعر، رغم أنه حاول جاهدا إثبات هذه الفكرة، وإضفاء طابع الشرعية عليها من خلال نوعية النصوص التي وظفها في ذلك، ومحاولة التفريق بين الشعر والنثر في نظرنا غير منطقية وفيها نوع من التكلف، إذ يبقى كل واحد منهما قسيما للأدب، وهما وجهان لعملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما والإكتفاء بأحدهما دون الآخر، ضف إلى ذلك أن هناك قواسم مشتركة بين الشعر والنثر في المضمون والوظيفة، وحتى الجانب الموسيقي الذي اتكأ عليه النقاد العرب القدامى للتفريق بين الشعر والنثر، لم يعد ذا أهمية كبيرة بعد أن وجدنا الكتاب يعتمدون على وسائل إيقاعية أخرى، اقترب من خلالها النثر كثيرا من الشعر، وكذلك الأدوات الأخرى التي يحتاجها الشاعر، أصبح الكاتب كذلك بحاجة إليها، ونقصد هنا التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز. ويبقى المنهج الموضوعي في دراسة النصوص الأدبية سواء كانت شعرا أو نثرا هو النظر إلى النص في حد ذاته، والكشف عن جمالياته وطاقاته التعبيرية الموجودة فيه، دون الإعتماد على أحكام مسبقة تبعدنا عن التفكير النقدي السليم، والأحكام النقدية الموضوعية.

قائمة المصادر والمراجع:

(1)- الحسن بوتبيا: المفاضلة بين النظم والنثر وأشكال التداخل بينهما في العصر العباسي. المطبعة والوراقة الوطنية- مراكش. ط1. ص 8.

(2)- زاهر مرهون الداودوي: الترابط النصي بين الشعر والنثر. دار جرير للنشر والتوزيع. ط1. 2010. ص 220.

(3)- محمد إبراهيم محمد الحفناوي: التعارض والترجيح عند الأصوليين وأثرهما في الفقه الإسلامي. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع. مصر. ط2. 1408. ص 280.

(4)- الحسن بوتبيا: المفاضلة بين النظم والنثر وأشكال التداخل بينهما في العصر العباسي. ص9.

(5)- أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي: إحكام صنعة الكلام. تحقيق: محمد رضوان الداية دار الثقافة بيروت 1966، ص 36

(6)- ابن عبد الغفور الكلاعي:إحكام صنعة الكلام، ص 36.

(7)- إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر. مطبعة لجنة البيان العربي. ط2. 1952. ص 244.

(8)- الحسن بوتبيا:المفاضلة بين النظم والنثر. ص 209

(9)- ابن عبد الغفور الكلاعي:إحكام صنعة الكلام. ص 36

(10)- المصدر نفسه. ص ص 36، 37.

(11)- أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر. تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية. ط1. 1952. ص ص 136، 137
(12)- المصدر نفسه. ص 137
(13)- المصدر نفسه. الصفحة نفسها .

(14)- ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده. مطبعة السعادة. مصر. ط1. 1907. ج1. ص 6.
(15)- ابن عبد الغفور الكلاعي:إحكام صنعة الكلام، ص 37
(16)- المصدر نفسه. الصفحة نفسها.
(17)- المصدر نفسه. الصفحة نفسها.
(18)- أنظر: المصدر نفسه. ص ص 37، 38.
(19)- منال نجيب العزاوي: ومضات نقدية في تحليل الخطابين الأدبي والنقدي مكتبة المنهل. دط. دت. ص 179.
(20)- ابن عبد الغفور الكلاعي:إحكام صنعة الكلام: ص38
(21)- ضياء الدين ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة. دار نهضة مصر للطبع والنشر. القاهرة. ج3 .ص 187.
(22)- المصدر نفسه. ص 189
(23)- أبو العلاء المعري: شرح ديوان أبي الطيب المتنبي معجز أحمد. تحقيق: عبد المجيد دياب. دار المعارف. القاهرة. ط 2. 1992. ج1. ص ص 217، 218.
(23)- سورة الأعراف :الآية 200.
(24)- ضياء الدينابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ج3. ص ص 180، 181.
(26)- ابن عبد الغفور الكلاعي:إحكام صنعة الكلام. ص ص 38، 39.
(27)- ابن منظور: لسان العرب. دار المعارف. القاهرة. مادة (رنم) ص 1745.
(28)- ابن عبد الغفور الكلاعي:إحكام صنعة الكلام ص 39
(29)- المصدر نفسه. الصفحة نفسها.